محمد بلتاجي حسن

فقيه نموذج ـ وأستاذ قدوة!

هزني نبأ رحيله، وأنا في الغربة، ومثله حين يرحل؛ فإن الخسارة ليست قليلة، والفقد ليس هينًا، وخاصة في زمن اختلطت فيه المعايير، وانهارت القيم، وانقلبت الأوضاع، في مجال حيوي وحساس، هو التعليم الجامعي، والثقافة الإسلامية، ومؤسسة الرأي الشرعي!

حين رأيته أول مرة، كان يقف أمام خزانة البطاقات في مكتبة كلية دار العلوم بمبناها القديم بالمنيرة.

كان نشيطًا ويعمل في صمت ودأب وهمة، بعدها رأيته في قاعات المحاضرات صارمًا وحازمًا ووفيًا لمنهجه العلمي، ورأيته رئيسا لقسم الشريعة والدراسات الإسلامية يقود كوكبة من العلماء الفضلاء اشتهروا بالجدية والإخلاص وجودة الإنتاج العلمي، ورأيته عميدًا منتخبا لثلاث مرات في أعرق كلية جامعية بالشرق العربي أنشأها علي مبارك في القرن التاسع عشر تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتضع –قبل غيرها– حلاً رائعًا لما يسمى «العلاقة بالآخر»، فتحافظ على الموروث المضيء، وتبحث عن الجديد المفيد، وتمضي في مسيرتها على أسس من الوضوح والالتزام والتقاليد العلمية الصارمة..

وكان الدكتور «محمد بلتاجي حسن» العميد المنتخب على مدى إحدى

عشرة سنة لدار العلوم، قلعة الإسلام والعربية، شامخًا في تواضع، عالما في زهد، جريئًا في ورع.. لم تشغله الدنيا عن الدين، لم يخفه الترهيب، ولم يغره الترغيب، فقد كان مخلصًا لربه وعقيدته وعلمه، في الوقت الذي تهاوى فيه البعض أمام الدنيا بمغرياتها وزخارفها، فساير التيار، أو بحث عن المنافع..

على سبيل المثال، جاء زمان آثر بعضهم إرضاء لبعض الجهات أن يأخذ بالأقوال المرجوحة التي لا تعتمد على سند قوي أو دليل واضح أو برهان ساطع، في تحرير بعض القوانين التي تهم الأسرة المصرية، ووجد الرجل أن هذه القوانين ستهز كيان الأسرة وتزلزل بنيان المجتمع لما فيها من ظلم بين وغبن صارخ لبعض الأطراف، فكان موقفه الرفض الصريح القائم على الأسباب العلمية الواضحة، والبراهين المنهجية القاطعة، وسجل ذلك في أكثر من كتاب ظهر للناس، مثل أحكام الأسرة، دراسة مقارنة، ودراسات في الأحوال الشخصية، ومكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

وحين تظاهر تتار الحياة الثقافية في أوائل التسعينيات، دعمًا للجهل المركب، والقصور العلمي، والنفاق الفكري في قضية جامعية أثيرت آنئذ، استدعاه رئيس الجامعة، والتقى به على انفراد، وقال له: إنني لا أعبأ بذلك الضجيج المثار، وأثق في رأيك العلمي المحايد، وعلى أساسه سيكون قرار الجامعة.

وقدم الفقيد تقريره العلمي الذي جاء بعد قراءة فاحصة دقيقة يفضح الجهل والادعاء والنفاق.. ولم يخافت برأيه، بل نشره بعد أن هدأت العاصفة!

ويوم حاول البعض أن يجد مسوغات للتعاملات الربوية الفاضحة في بعض المؤسسات المالية، فإن الرجل، اعتمد على الكتاب والسنة وآراء العلماء والمجتهدين قديمًا وحديثًا، ورفض هذه التعاملات التي تغضب الله، وتضع الناس تحت رحمة الشياطين الأجانب والمحليين.

عرف طلاب «دار العلوم». الدكتور «محمد بلتاجي حسن» مذ بدأ التدريس في مدرجاتها أستاذا جادًا صارمًا، يؤدي واجبه العلمي على أحسن الوجوه، وكان البعض يضيق من صرامته وحزمه في المجال العلمي، ولكنه كان يصر على موقفه ومنهجه، لأنه يعده واجبًا دينيًا، قبل أن يكون واجبًا وظيفيًا.. وأذكر أنني رجوته ذات يوم، وكنت رئيسا للقسم العلمي بالكلية التي أعمل بها، أن يراجع كراسات الامتحان في مادة الدراسات الإسلامية التي كان منتدبًا لتدريسها بعد أن بدت نتيجة المادة متدنية، فغضب غضبا شديدًا، وقال لقد أديت واجبي داخل المحاضرات، وقرأت أوراق الإجابة كلمة كلمة، فلينجح من يستحق، وليرسب من لا يستحق. قلت له: إن الكلية ستشكل وفقا للائحة «لجنة مادة» لرفع درجات الطلاب. فقال: هذا ليس شأني، وليفعلوا ما يريدون!.

لم أستغرب غضبه، فقد كان يرى أن الطالب المتخصص يجب أن يعامل بدقة لأنه يجب أن يكون أمينًا وناجحًا بحق في تخصصه، وخاصة إذا كان الدراسات الإسلامية... ومن هنا، فقد كان يرفض الإشراف على كثير من طلاب الدراسات العليا، لأنه يراهم غير مؤهلين للبحث العلمي. وفي الوقت الذي كان يرفض التهاون في الإشراف العلمي، كان البعض في زمننا يتخذ من الإشراف «سبوبة» ومصدر وجاهة يفاخر به بين الجهلاء! وفي الوقت الذي كان يحاسب طلابه بدقة، كان بعض أعضاء هيئة التدريس لا يعرفون الفارق بين الفقه وأصول الفقه، أو بين الحديث الشريف وعلم الميراث فضلاً عن قصورهم اللغوي والفكري، ومع ذلك يملأون الدنيا ضجيجًا بأهميتهم ووجودهم!

لقد افتقدنا أستاذًا قدوه، يترفع عن ابتذال نفسه أو ابتذال علمه، وقد رجوته في السنوات الأخيرة أن يتفضل بالتدريس لطلاب الدراسات العليا في كليتي، ولكنه اعتذر بلطف، في الوقت الذي يتهافت فيه كثيرون على مدّ

خيوطهم العنكبوتية في شتى الاتجاهات.

ما بين مولده في أسيوط عام ١٩٣٨، ووفاته في أبريل ٢٠٠٤م عاش الرجل حياة حافلة، عامرة بالجهد والجهاد من أجل الدين واللغة وكرامة المجتمع. لقد نشأ في قرية الحمراء بكفر الشيخ، واستقر في مدينة طنطا التي عمل بها في مجال القضاء الشرعي، وقدم للأمة مجموعة نفيسة من الكتب في مجال تخصصه أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ونضيف إليها، منهج عمر بن الخطاب في التشريع –مناهج التشريع في القرن الثاني الهجري – الملكية الفردية (وحصل به على جائزة الدولة) –بحوث في التفسير والأصول والتشريع- بحوث في القرآن والوحي- التشريعات المالية في فقه عمر بن الخطاب- الجنايات وعقوبتها في الإسلام وحقوق الإنسان.

إلى جانب ذلك فقد أسهم بالعديد من المقالات في الصحف والمجلات، وشارك في كثير من الندوات العامة، والبرامج التلفزيونية، مع حرصه أن يبتعد قدر جهده عن المجال الإعلامي، ليعكف على دراساته وبحوثه.

لقد اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقبل ذلك عين عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية، ولكنه كان دائمًا حريصًا على استقلالية رأيه وفقًا للمعطيات العلمية والأدلة الصحيحة.. لقد كان نموذجًا فريدًا للعالم والباحث والأستاذ الجامعي، وقد رحل عنا في وقت كنا أحوج إليه من أي وقت مضى، بعد أن انقلبت الأوضاع، وانهارت القيم، واختلطت المعايير.. ونسأل الله الرحمة له ولنا ولسائر الأمة!

محمد عاشور

الكلمة المتوضئة

رحل كالنسيم هادئًا وديعًا، كأنه لم يقصد أن يزعج أحدًا في حياته أو عند رحيله، مع أنه في حياته كان رمزًا لمقاومة ترفضها قوى الشر وأعداء الإسلام، وكان عند رحيله رمزًا للصبر الجميل على البلاء الذي استمر سنوات طولا!!

كان «محمد عاشور» - رئيس تحرير الاعتصام - رمزًا للصلابة التي تمثلها الكلمة المتوضئة في مواجهة الكلمة التي لا تعرف الله، ولا تؤمن به، ولا تثق في قدره.. ولعل هذا كان من وراء عزوفه عن المناصب الصحفية - كان مديرًا لجريدة التعاون- وإصراره على التقاعد المبكر ليفرغ للتحقيق العلمي الذي لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرجال، والتأليف الأدبي الذي يجهد أصحابه، ويكلفهم أكثر من عائده... ومن ثم، كان بعده عن الأضواء أو كراهية الاستعراض سمة أساسية في تكوينه وسلوكه، فلم أعرف عنه وقد عايشته أكثر من ربع قرن رغبة في الظهور أو نزعة للاستعلاء، ومع أنه كان رئيسًا لتحرير «الاعتصام»، فلم يكتب اسمه متميزًا عن بقية الكتاب،ولم يسع يومًا لتكون مقالته في صدر المجلة، بل كان يكتفي دائمًا أن يمثل «الكنترول» الذي يضبط إيقاع الموضوعات وهيئتها التي تجعلها في أبهى صورة فكريًا ولغويًا.

لقد تولى «محمد عاشور» مسئولية «الاعتصام» مع شقيقه «حسن» بعد أن تسلمها من والده الشيخ أحمد عيسى عاشور -رحمه الله- وكان قد أخلد إلى

القراءة والكتابة في بيته بعد أن تقدمت به السن، فشهدت «الاعتصام» في زمنه قفزة نوعية وكمية... وأصبحت علامة على تطور أفضل في مجال الفكر الحركي الإسلامي، كما ذاعت شهرتها في أرجاء البلاد والعالم الإسلامي، وصارت أعدادها -بفضل الله- تذهب إلى السوق ولا ترجع، وأضحت «الاعتصام» نموذجًا «للمجلة الإسلامية التي تقرأ من الغلاف على الغلاف...»

ابتعدت «الاعتصام» عن الإنشائيات المكرورة، والأسلوب الفج، والمعالجة الميتة لقضايا الأمة، فكانت كلماتها سهامًا حادة في صدر الفكر المنحرف، وحائط صد يذود عن المسلمين المستضعفين داخل مصر وخارجها، وكانت سوطًا يلهب ظهر الفساد والعفن والانحلال، وكم تعرضت لمحن المصادرة والإغلاق ودخول القائمين عليها السجن والليمان بدءًا من مؤسسها ومرورًا بالراحل الكريم وأشقائه. ولكنها لم تهن ولم تستسلم، ولم تتراضخ للترهيب أو الترغيب، وظلت على منهج الإسلام المستقيم لا تميل ولا تحيد! حتى أوقفها قانون ظالم بعد رحيل مؤسسها، عليه رحمة الله.

لقد خاضت «الاعتصام» في ظل رئاسة «محمد عاشور» العديد من المعارك المشهورة، دفاعًا عن الإسلام والحرية، فكانت المطالبة الدائمة بتطبيق الشريعة الإسلامية، والدفاع عن أفغانستان التي قهرها السوفيات الشيوعيون، وكان موقفها المدافع دائما عن فلسطين وشعبها ضد الغزوة الصليبية التي يتقدمها شذاذ الآفاق من اليهود، وكان صوتها الداوي الرافض للمصالحة مع العدو اليهودي الغادر، وكان وقوفها الصلب مع مسلمي آسيا وإفريقية وأوروبة المضطهدين من قبل قوى التعصب والوثنية، وكانت ملاحقتها الدائبة الجريئة لعملية التغريب والإذابة التي تتبناها القوى الشريرة في الداخل والخارج، وكانت.. وكانت.. بالإضافة إلى التعريف بمنهج الإسلام وشريعته وغاياته ومقاصده.

وفي خضم ذلك، كان «محمد عاشور» رئيس تحرير الاعتصام –جنديا مجهولاً: يقرأ ويراجع ويخطط، في صلابة المجاهدين، وزهد العارفين، وثقة المؤمنين –ولا نزكي على الله أحدًا– فكان بحق رمزًا للكلمة المتوضئة التي لا ترضى بغير الطهر والاستقامة والعفة..

بعد توقف «الاعتصام» أواخر الثمانينات، عم الحزن أسرة الاعتصام– إدارة وكتابا ومحررين– لم يتكلم أحد من أنصار حرية الصحافة عن إغلاق منبر، وكسر أقلام، والإطاحة بسفير متجول في أرجاء العالم الإسلامي يقدم للناس صورة من صور الحرية والتعبير في مصر الإسلامية، وكنت أقابل الناس في بعض العواصم العربية والإسلامية، فيسألونني عن «الاعتصام» ولماذا غابت؟ فأبتسم وأقول لهم: إنها ستعود بإذن الله قريبًا! لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك، فقد كان الحلم –وما زال– أن تعامل مثل غيرها من المطبوعات التي تملأ أرض مصر، والتي جرى لها ما جرى للاعتصام، ولكن المعاملة الخاصة للكلمة المتوضئة كانت علامة فارقة في مصر المسلمة.. منذئذ رأيت «محمد عاشور» يتراجع صحيًا، وتظهر على ملامحه علامات الفقد.. فقد «الاعتصام» الابنة والأم والحب... وتعرض الرجل لأزمات صحية متوالية.. وفي الأزمة الأخيرة لم يطاوعني قلبي أن أراه في أزمته يعاني ويتألم، وكان الأمل يحدوني، ويحدو المحيطين به، أنها أزمة إلى انفراج بإذن الله، ولكنها كانت علامة الرحيل والسفر إلى الملأ الأعلى راضيًا مرضيا إن شاء الله تعالى..

كان في كل الأزمات صابرًا ومحتملاً وراجيًا عفو ربه.. لم يشك ولم يتململ ولم يسخط، ولكنه كان حريصًا على الدعاء باستمرار، وعلى قراءة القرآن كلما أتيحت له الفرصة، حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى.. تاركًا لنا الرمز الذي يجسد الإخلاص والطيبة والبساطة، ويمثل الكلمة المتوضئة والصبر الجميل، والرضا بقدر الله.

لقد خلف «محمد عاشور» مجموعة من الأعمال الفكرية والأدبية، بذل فيها جهدًا كبيرًا، ووقتًا طويلاً أبرزها تحقيقه لمسند الإمام أحمد –وصحيح البخاري والصمت وحفظ اللسان ومن كتبه المؤلفة: الدعاء، وخطب عمر بن الخطاب...الخ.

رحم الله الدكتور «محمد عاشور»، الهادئ الوديع، الذي رحل كما يرحل النسيم، ونسأل الله أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى مع الأبرار والصالحين.

obeikandl.com

محمد حسن بريغش

أديب إسلامي يعمل في صمت!

كان الخبر صادمًا وإن كان متوقعًا، ولعل الصمت الذي رافق رحيله كان من وراء الصدمة، فقد كنت أتوقع أن يذاع الخبر على الناس ليعلم محبوه برحيله بدلاً من إثارة الألم والشجن لدى أسرته حين يسأل عنه سائل أو صديق، ولكنه –فيما يبدو– آثر أن يكون رحيله صمتًا، مثلما كان يحب في حياته أن يعمل صامتًا، مخلصًا لفكرته، متفانيًا من أجلها.

لم يكن الصديق العزيز الراحل «محمد حسن بريغش» –رحمه الله– مجرد أديب أو حامل قلم، فما أكثر الأدباء الذين يحملون أقلامًا، ولكنهم يتخذونها وسيلة للتكسب أو الوجاهة الاجتماعية أو الشهرة في عالم الناس. بريغش حمل القلم دفاعًا عن قضية ودعوة لفكرة وتبشيرًا بمستقبل، لذا كرس حياته وجهده لخدمة قضية «الأدب الإسلامي» والتعريف بها والذود عنها، وفقا لقدراته وطاقاته، وقد ظل وفيا لهذه القضية حتى وافاه الأجل المحتوم، لا ينتظر من الناس جزاءً ولا شكورًا، وقد تحمل في سبيلها ضريبة قاسية دفعها بصبر المؤمن وإخلاص المجاهد.

عرفته منذ سنوات بعيدة، وقد جاء إلى مصر، باحثا عن شاعر شاب رحل مبكرًا في عز شبابه اسمه «هاشم الرفاعي». وكان هذا الشاب من طلاب كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، وتدفقت شاعريته مذ كان طالبا في المعهد الديني

بالزقازيق، فتناول القضايا الكبرى وصورها بذوب مشاعره وأحاسيسه، حتى توفي فجأة إثر طعنة من شاب في نادي قريته، وكان شعر هاشم الرفاعي في ذلك الحين قد دار على الألسنة لقوة مضمونه وجرأته، وخاصة بعد أن بدأ النظام الجديد أوائل الخمسينيات يغير من توجهاته ويتناقض قوله مع فعله. وترك هاشم ديوانًا كبيرًا متفرقًا في الصحف والمجلات وأوراقه الخاصة، فجاء «محمد سن بريغش» ساعيًا لجمع هذا الديوان وتحقيقه، وبذل جهدًا كبيرًا في تصويبه وتصحيحه، وقدمه إلى الناس في مجلد كبير مسبوقًا بدراسة دقيقة مسهبة تتناول الشاعر في حياته وظروفه وثقافته. وكان رحمه في العام (٢٠٠١م) قد أرسل إلي يخبرني أنه سمع أن تحقيقًا جديدًا صدر لديوان «هاشم الرفاعي» في المنصورة، ويريد نسخة منه، ولكي يحثني على الإسراع في إرسال هذه النسخة أخبرني أنه سيرسل إلى «التكاليف»! وضحكت في نفسي، وأحضرت الديوان وأرسلته إليه عن طريق ولده في مكة بمعرفة أحد أصدقائي، وكتبت عليه إهداءً يعبر عما قدمه هو –رحمه الله– من فضل سابق، ولم أشأ أن أقول له إن الديوان بتحقيقه الجديد هو نسخة طبق الأصل من تحقيقه هو مع بعض الحذف والتعديل، بالإضافة إلى مقدمة فيها كثير من التزيد والادعاء وغمط الحق! ولم يشأ –رحمه الله– أن يحدثني في الأمر، فقد علمت منه فيما بعد أنه دخل المستشفى أكثر من مرة بسبب «القلب» وأنه تعرض لأكثر من أزمة صحية، ولكنه يواصل الصبر والعمل بقدر طاقته.

ثم كانت انعطافته الكبيرة نحو الدعوة إلى الأدب الإسلامي، وهي التي نفذها وقادها عمليا عدد من الأدباء العرب في مقدمتهم الدكتور نجيب الكيلاني والدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، رحمهما الله، والدكتور عبد القدوس أبو صالح والدكتور عبد الباسط بدر، أطال الله عمرهما، وآخرون في العديد من البلدان العربية والإسلامية، وهي الدعوة التي صارت اليوم حقيقة

واقعة في إنتاج كثير من الأدباء العرب والمسلمين، وفي رابطة الأدب الإسلامي العالمية التي أسهم بدور كبير في تأسيسها ومراحلها الأولى.

لقد كان «محمد حسن بريغش» ينطلق من تصور إسلامي ناضج، وكان مثاليا في تصرفاته وسلوكه إلى الدرجة التي جعلته يبدو أحيانًا، وكأنه يتشدد، ولا يعترف بالمواءمة التي تفرضها الظروف القاهرة، ولكنه في كل الأحوال، كان نقيا ومخلصًا، وكان وفيا للصداقة والوعد، وما رأيته يخلف وعدا اتفقنا عليه، ويكاد يلتزم في مواعيده بالدقيقة، وإذا اضطرته الظروف لتأجيل الموعد أو التأخر قليلاً، فإنه يعتذر هاتفيا ويتأسف .. وتلك آية الرجال الذين تربوا على مائدة الإسلام فغذتهم بأخلاقه وقيمه وسلوكه.

ومن سماته التي عرف بها التزامه الدقة في كل أعماله، وخاصة ما كان منها متعلقا بدائرة الوظيفة، فقد كان يتولى مراجعة الكتب التعليمية في تعليم البنات بالمملكة العربية السعودية، فجاء حرصه الشديد على أن تخرج هذه الكتب في أنصع صورة، سليمة التركيب والبناء، خالية من الأخطاء والتصحيف، نقية من الشبهات والاجتهادات غير الموثقة، وأذكر أنه قرأ أحد كتبي، وتابع تصحيفاته الكثيرة التي وقعت بسبب السرعة في إخراجه وطبعه، فرجوته أن يعطيني النسخة التي لديه مقابل أن أعوضه نسخة جديدة من هذه الطبعة، ومن الطبعة الجديدة التي ستعتمد على النسخة التي قرأها، ووفيت بجزء من وعدي، أما الجزء الثاني فلن أفي به لأنه لن يقرأ الطبعة الجديدة!

لقد حركته الدعوة إلى الأدب الإسلامي كي ينتج مجموعة من الكتب ويكتب مجموعة من المقالات والقصص. ويحمد له -رحمه الله- أنه اهتم بالرواية الإسلامية في مجال متابعاته الأدبية والنقدية، والاهتمام بالرواية في الأدب الإسلامي يبدو اقل من الطموح المنتظر من حركة الأدب الإسلامي عامة، ولكنه -أي الراحل الكريم- بذل جهودًا طيبة في هذا السياق حيث

استعرض العديد من الروايات التي كتبها أدباء إسلاميون، إلى جانب بعض المجموعات القصصية من إنتاجهم أيضًا، وكان تركيزه في المجال النقدي على المضامين أكثر من تركيزه على النواحي الفنية، ولعل اهتمامه بمسألة تنقية التصور الإسلامي لدى كتاب الرواية والقصة الإسلاميين من الشوائب الفكرية والعقدية، كانت من وراء هذه المبالغة في التركيز على مضامين الروايات والقصص.

ومن وجهة نظري فإن عمله المهم تمثل في دراسته التي حملت عنوان «أدب الأطفال: تربية ومسئولية». لقد كتبه من منظور إسلامي يتجاوز الكتابات العربية التي استسلمت للمنظور الغربي في الكتابة للأطفال. وهو ما جعله فيما بعد يعيد طبع الكتاب تحت اسم جديد يشير فيه صراحة إلى رؤيته الإسلامية.

كان الدكتور علي الحديدي –رحمه الله– من أوائل إن لم يكن أول –من كتبوا عن أدب الأطفال، وكانت دراسته للدكتوراه، هي المرجع الذي تضمن التأريخ لمسيرة أدب الأطفال منذ العصر البدائي حتى العصر العباسي الذي يعد العصر الذهبي بالنسبة لمن كتبوا في تربية الطفل المسلم. وكان كتاب الحديدي مسايرًا– وخاصة في حركة الطفل في العصر الحديث– للتوجهات الغربية، فلم يبد موقفًا حادًا منها بالتأييد أو المعارضة.

ثم ظهرت دراسات وكتب أخرى تتبنى وجهة النظر الغربية، رأسمالية أو شيوعية، بصراحة ووضوح... فجاءت دراسة «محمد حسن بريغش» لتؤصل للرؤية الإسلامية في تربية الطفل المسلم، وتطرح التصورات البديلة للرؤى الأجنبية المغايرة للتصور الإسلامي، فضلاً عن رصد حركة الأدب الإسلامي للطفل على امتداد العالم العربي الإسلامي، مما دل على متابعة واعية للموضوع وحرص على تأصيل أدب متميز للأطفال في بلادنا العربية والإسلامية، ويؤكد ذلك هذا العدد الكبير من المصادر والمراجع ذات الصلة الوثيقة بأدب الطفل

حيث قاربت أكثر من مائة مصدر ومرجع، فضلاً عن عدد هائل من الدوريات، ثم عدد كبير من البحوث المخطوطة وتتعلق بأدب الطفل المسلم.

لقد كانت دراسة «محمد حسن بريغش» حافزًا للعديد من الباحثين والأكاديميين للكتابة عن أدب الأطفال الإسلامي، ومتابعة جوانبه المختلفة، الموضوعية والفنية، وهذا مما يحمد له، ويوضع في ميزان حسناته إن شاء الله تعالى.

كنت أتمنى أن أعرض لبعض نماذج نقدية وقصصية من كتابات الرجل، وأكشف عن بعض الزوايا في نظراته النقدية وتحليلاته القصصية، ولكن ضيق المجال، يهيئ لفرصة أخرى، أكثر رحابه وأهدأ عاطفة ولكن يكفينا الآن أن نؤكد على إخلاص الرجل لقضية الأدب الإسلامي، ومثابرته في الدعوة إليها، عبر كتبه، ومقالاته التي حملتها مجلات عديدة، منها: المجتمع والأدب الإسلامي، والمشكاة، والبيان، والمجلة العربية وغيرها من دوريات تصدر في العالم العربي والعالم الإسلامي.

يبقى أن نتوجه إلى الله العلي القدير بالدعاء أن يرحم فقيدنا، وينزله منازل الأبرار والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

obeikandl.com

محمد حسنين هيكل

السلطة والسطوة

كلما أطل على شاشة التلفزة، شغل الناس، والصحافة، وأجهزة الإعلام، وراحت الأقلام والآراء تتسلل إلى صميم ما قاله وشرحه وقدمه، ذلك أن لقاءه بالجمهور ليس لقاءً عاديًا، وحديثه ليس حديثًا ترفيهيًا أو سد خانة، ولكنه يمتلئ بالمعلومات والوثائق، ويضيف إلى عقول الناس شيئا جديدًا لم يقله أحد آخر لهم.

«محمد حسنين هيكل» الصحفي، أو الجورنالجي، كما سماه أحد محرري «الأهرام» في كتاب أصدره عنه، ربما لا تعرفه الأجيال الجديدة بما فيه الكفاية، على المستوى الإنساني أو المستوى الفكري، ولعل الشباب يتابعون بعض مقالاته في «وجهات نظر»، أو يطالعون ملخصات لبعض محاضراته وأحاديثه، أو يمرون على بعض الكتابات التي تشيد به أو ترد عليه، ولكنهم لا يعرفون ملامحه الإنسانية أو الثقافية.

«محمد حسنين هيكل» على المستوى الإنساني، قصة كفاح ودأب ومثابرة وتنظيم عمل، وتوظيف ذكاء، وصعود مستمر في آفاق العمل والمجتمع، ولد هيكل في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٢٣ لأسرة مستورة الحال من محافظة القليوبية، وحصل على دبلوم تجارة، واتجه إلى الصحافة، فعمل في جريدة «الإيجبشيان جازيت» في عام ١٩٤٣ محررًا تحت التمرين في قسم الحوادث،

وانتقل إلى القسم البرلماني، وذهب إلى الشرق الأقصى ليغطي الأحداث الدامية التي صنعتها معارك الحرب العالمية الثانية، ولعله كان الصحفي العربي الوحيد الذي خاض ميادين القتال في كوريا، وامتدت رحلاته الصحفية في إطار العمل مراسلاً عسكريًا لتشمل فلسطين والبلقان وأفريقيا، وكان قد انتقل في ١٩٤٥ إلى مجلة آخر ساعة واقترب من صاحبها محمد التابعي. وفي عام ١٩٥١ تولى رئاسة تحرير «آخر ساعة» وعمل مديرًا في الوقت نفسه لأخبار اليوم.

ومنذ التحاقه بالصحافة، سعى لامتلاك «الإنجليزية» لغة ضرورية يكتب بها ويتحدث، فضلاً عن القراءة، وعن طريق الجامعة الأميركية بالقاهرة استطاع أن يحقق هذا الإنجاز، وهو ما أهله فيما بعد ليكتب في الصحف الكبرى بالعاصمة البريطانية وغيرها.

وعندما انتقل إلى «الأهرام» رئيساً لمجلس الإدارة، والتحرير عام ١٩٥٧، دفع به إلى مقدمة الصحف المصرية والعربية، بل وصل إلى أن يكون إحدى الصحف العشرة الأولى في العالم، إذ كانت قدرته على التنظيم والتدقيق واختيار الكفاءات الصحفية والثقافية والتزامه المهني بتقديم الخبر في إطاره الطبيعي الذي لا يهول ولا يهون (مع أنه قادم من مدرسة أخبار اليوم التي تتميز بالمبالغة والإثارة والرجل الذي عض كلبا)، لقد حقق للأهرام نقلة كبيرة في المعنى والمبنى.

وبحكم العلاقة الوثيقة التي ربطت بين هيكل ورئيس الدولة آنئذ «جمال عبد الناصر» فقد تغلب على القيود المالية والتشريعية التي تحد من المبادرة والنشاط، فأسس أكبر مبنى للأهرام في الشرق، وزوده بأحدث وسائل العمل الصحفي على كافة مستويات التحرير والتوزيع والإنتاج الصحفي، وألحق به مجموعة من مراكز البحث والدراسات والتوثيق التدريب، كما فتح المجال لعناصر العمل الصحفي كي تذهب إلى أبعد مدى في الإبداع والتأصيل، مع

إطلاق المقابل المادي والمعنوي الذي يحفز على المزيد، ويربط العنصر بموقعه وعمله... وهو ما تبدى في علاقة إنسانية حميمة بينه وبين العاملين في «الأهرام» كافة- على اختلاف توجهاتهم السياسية والفكرية- ظلت قائمة حتى الآن منذ رحيله عن المؤسسة قبل ربع قرن من الزمان تقريبًا.

ولا ريب أن هذا الجهد الصحفي والتنظيمي (الإداري) كان وراءه عقل يقظ وإرادة قوية وعزيمة صلبة لبناء مؤسسة قادرة على العمل والمنافسة والكسب أيضا، ويكاد «الأهرام» أن يكون المؤسسة الصحفية الوحيدة التي حققت في مختلف المراحل على عهد هيكل، أعلى مستوى من الأرباح، وأعطت أفضل الامتيازات لصحفيها والعاملين بها، في الوقت التي تعثرت فيه مؤسسات أخرى، وأثقلت كاهلها الديون والمشكلات!.

على المستوى الفكري ينبغي أن نميز بين جانبين، الأول هو القدرة على التعبير والصياغة من خلال الحصول على المعلومة والوثيقة والخبر، وقد حقق هيكل في هذا الجانب نجاحًا عظيمًا، وقد كان يبهرني شخصيا أسلوبه الموشح بالتنسيق والترتيب والمجازات والصور المتميزة، الجانب الآخر، هو معتقداته الخاصة سياسيا وفكريا، وهذا الجانب التبس مع علاقته الحميمة مع الرئيس «جمال عبد الناصر»، حيث بدا الصحفي في خدمة السياسي يسوغ له حرمان الشعب «المعلم» من الحرية والديمقراطية الحقيقية، ويميع المواقف بالنسبة للأخطاء والخطايا التي ترتكب في حق فرقاء الوطن (المغضوب عليهم) والدول العربية التي لا تنضوي تحت لواء الموكب الناصري.

المفارقة أن هيكل بعد رحيل عبد الناصر، ومجيء السادات، لم يبد معارضة للأخير، بل تماهى معه لدرجة أنه حظي بكتابة «قرار الحرب» ١٩٧٣ الذي لم يعلم به إلا قلة على رأس الدولة، تعد على الأصابع، وقبل ذلك انحاز إلى السادات في مواجهة فريق ١٥ مايو ١٩٧١ الذين أطيح بهم فيما عرف بثورة

التصحيح، ولم تظهر المعارضة إلا بعد تنحيته عن «الأهرام» عقب حرب رمضان (١٩٧٤)، ولم تشتعل إلا بعد رحيل السادات، حيث كان قد اعتقله في حملة سبتمبر ١٩٨١ التي شملت القيادات السياسية الإسلامية المعارضة.

بيد أن هيكل الذي خرج من المعتقل بعد أسابيع من تولي الرئيس مبارك الحكم، شن أعنف هجوم ضد السادات في كتابه «خريف الغضب»، ولم يترك مناسبة إلا انتهزها لينال من رئيسه السابق الذي وثق فيه ذات يوم وائتمنه على كتابه قرار الحرب!.

لا ريب أن هيكل بعد أن تحرر من العمل المباشر مع السلطة السياسية، والعمل الوزاري (كان وزيرًا للإعلام عام ١٩٧٠ ومستشارًا للرئيس بعد حرب رمضان)، صارت كتاباته أكثر قربًا من واقع الناس في مصر والعالم العربي، وبحكم ما يملكه أو يحصل عليه من وثائق ومستندات عالج العديد من القضايا معالجة جيدة، وإن اختلف معه البعض في نقطة هنا أو نقطة هناك.

لقد قدم في فترة التحرر من السلطة عددًا من الكتب المهمة والخطيرة فيما أتصور، على رأسها «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» (ثلاثة أجزاء)، وقد عرضت له في مقالة قصيرة لدى صدوره، ثم الطريق إلى رمضان، وأوهام القوة والنصر، وعودة آية الله، بالإضافة إلى مجموعة حرب الثلاثين سنة (أربعة أجزاء)، ومجموعة «بصراحة» التي ضمت مقالاته الأسبوعية التي كان ينشرها الأهرام كل يوم جمعة تحت هذا العنوان منذ عام ١٩٦٠، وكان يعبر فيها عن رأي القيادة السياسية وظهرت على C.D.

والرجل يواصل كتابه مقالاته المنتظمة في «وجهات نظر» الشهرية[١]، كما

(١) انقطع عن الكتابة في وجهات نظر منذ بدايات عام ٢٠٠٤م، وعاد مؤخرًا في أواسط ٢٠٠٥ للحديث عن تجربة حياته الصحفية والسياسية على شاشة قناة «الجزيرة» في حلقات أسبوعية.

يكتب لوكالة نشر دولية، تنشر ما يكتبه في صحف عالمية بلغات مختلفة.

في لقائه بجمهور المشاهدين للشاشة الصغيرة فاجأهم هيكل بوثيقة أميركية قدمت إلى السعودية تحمل عددًا من المطالب في مقدمتها تغيير تعليم الدين الإسلامي في مدارس المملكة؛ الوثيقة المذهلة أثبتت أن أميركا تريد «إسلامًا أمريكيًا» يعتزل الحياة والمقاومة ويكرس التبعية والمذلة.. ويؤمن النفط وأسعاره![1].

وما زال الجانب التنظيمي والإداري في حياة هيكل من أهم ملامحه، علمت أنه –قبل اختراع الكمبيوتر– كان يعتمد على سكرتير نشيط، ينظم له مكتبه ومكتبته، يرتب الوثائق والأوراق والملفات بحيث يتمكن من إعداد أي موضوع يريد أن يتناوله في أسرع وقت وبأبسط الطرق، تأملت حالي وأحوال آخرين، تبعثرت كتبهم وأوراقهم وتراكمت فوق بعضها، وصار إعداد موضوع ما أصعب من حمل الجبال، بسبب الفوضى وانعدام النظام– لقد تمنيت أن أصحب صهري (حسنين كروم) وهو ناصري حتى النخاع، في زيارة لهيكل، لا لأتناقش معه فكريا وسياسيا، ولكن لأتعرف منه على «الحرفة» كيف يكتب وكيف يؤلف وكيف يخرج على الناس بإنتاجه.. ويبدو أن هذه الأمنية لن تتحقق بسبب ظروفي الصحية المضطربة، وبعدي –في أعماق الريف– عن القاهرة، وإن كانت الأمنية تستحق المحاولة، فالرجل وإن اختلف البعض معه، يمثل تجربة إنسانية وفكرية توجب التعرف عليها والإلمام بها وتسجيلها.

(١) كان هذا الكلام في أكتوبر ٢٠٠٢، قبل العدوان الصليبي الاستعماري على العراق واحتلاله، وبعد العدوان والاحتلال (٢٠٠٣م) أعلنت أميركا صراحة مطالب كثيرة وجهتها إلى العرب والمسلمين لتغيير المناهج التعليمية والخطاب الديني الإسلامى وإلغاء المعاهد الدينية الإسلامية وأشياء أخرى..!!

محمد رجب البيومي

الإنسان ... والأديب

هناك تقصير من الهيئة الثقافية في الاحتفاء بأديب كبير، ومفكر جاد، وعدم تقدير لعطائه العظيم، مع أنه –بالنسبة لي على الأقل– يسكن حبة القلب، مذ كنت شابا يافعًا، يسعى في بداية مشواره الأدبي والعلمي إلى البحث والدرس. كنت أسعى إلى تقديمه ضمن نخبة من الأعلام المعاصرين في مشروع لم يقدر لي أن أبدأه، وكنت أتوق إلى توجيه بعض طلابي في الدراسات العليا لتناوله من جوانب مختلفة: شاعرًا، ناقدًا، قاصًا، مؤرخًا أديبًا، ناثرًا صاحب أسلوب.. ولأن الحياة تجذبنا إلى مسارب وأودية تشغلنا وتلهينا وتستغرقنا، حتى يمضي العمر، فلا ننجز ولا ننتج؛ فإن الاعتذار لا يكفي، والأسباب لا تقنع.

ولا أخال الدكتور البيومي في حاجة إلى جائزة من جوائز الدولة التي تمنحها عن طريق وزارة الثقافة، فالرجل –في ظني– أكبر من هذه الجائزة، ومثله الأدباء والشعراء والنقاد الذين يصدرون عن تصور إسلامي ومنهج أصيل، والسياسة الثقافية التي رحبت بحملة نابليون على مصر، ورأت في التنوير (بمفهومه الأوربي) منقذًا من الضلال، وتبنت التصورات اليسارية والمادية، لا تمنح أمثال الدكتور البيومي جائزتها، ولو شهدت لهم الدنيا بأسرها، ويكفي أن نعلم أن الجائزة حجبت عن الدكتور «شوقي ضيف» أكثر من مرة، ومنحت لبعض الصحفيين، والأسباب معروفة، ولا داعي لذكرها.

وبهذه المناسبة أتمنى لو شرع «الأزهر الشريف» في إنشاء جائزة لا تمنح إلا لهؤلاء الأصلاء الذين ينتجون الثقافة من مفهوم إسلامي خالص، فهذا هو الرد العملي على جوائز «التغريب» والثقافة المغشوشة.

إن ثقة القارئ واعتزازه وإعجابه بما يكتبه البيومي، لهي أكبر جائزة يتلقاها على جهده الأدبي ونشاطه الثقافي، وكثيرًا ما أتلقى العديد من تعليقات الإعجاب والإشادة بما يكتبه الرجل من قراء عرب ومسلمين في أكثر من بلد شقيق.

وأذكر أنني في أواخر الستينيات، كنت في مكتب الأديب الكبير الراحل «أحمد حسن الزيات» صاحب مجلة «الرسالة» الشهيرة ومؤسسها، ورأيت فضيلة الشيخ «يوسف الشال» -يرحمه الله- سكرتير تحرير «الأزهر» يومها، يعرض على الأديب الكبير الراحل- وكان رئيسا لتحرير «الأزهر» آنئذ، المقالات الواردة إلى المجلة ليختار منها الصالح للنشر، وعندما جاء دور مقالة الدكتور البيومي، قال الزيات: البيومي، ماشي.. بطريقة توحي أنه يثق في كتاباته ويطمئن إليها، ولا يحتاج إلى مراجعتها، لذا كان من الكتاب الدائمين في «الأزهر»، كما كان من الكتاب الدائمين في «الرسالة» القديمة، وفي «الرسالة» الجديدة (الإصدار الثاني في عهد الدكتور عبد القادر حاتم، وزير الثقافة والإرشاد القومي في الستينيات من القرن الماضي)، وكانت مقالاته تجاور مقالات كبار الكتاب في الأزهر والرسالة... الذين يتقدمهم الأستاذ العقاد، والشيخ المدني، والدكتور الغمراوي وشيوخ الأزهر الأجلاء.

والبيومي له منهج في الحياة والكتابة يميل إلى التيسير دون تفريط، والإشارة إلى النقص دون تجريح. مع فتح صدره للناس جميعًا، وخاصة الشباب وأصحاب الحاجات، ولا يضن بمساعدة أو معروف يقدر عليه، لذا حظي بإجماع معارفه ومحبيه وأصدقائه على نبل سلوكه وحسن خلقه، ولا نزكي على

الله أحدًا.

كنت أتحدث إليه في بعض الأمور من منطلق الثورة والحنق على بعض السلبيات، فرأيته يهدئ من روعي، ويقدم لي الوجه الآخر لما أتناوله، فأتطامن ، وألتمس عذرًا، وكان يتفضل بقراءة كتاباتي المتواضعة، ويشبه حدتي في بعضها بما كان يكتبه السيد «جمال الدين الأفغاني»، مع الفارق بيني وبين الرجل، ولكن كرم خلق البيومي، يأبى إلا أن يشجع ويقوم في الوقت نفسه.

تدارست معه موضوعي للماجستير، وموضوعي للدكتوراه. فلم يضق بي، بل ساعدني بما استطاع من كتب ودوريات وإشارات، وكان يقول لي: لو كان الأزهر يسمح لغير الأزهريين بالعمل فيه، لاخترتك في إحدى كلياته.

ولا أنسى عندما ناقشت الماجستير في دار العلوم، عقب ظروف مأساوية اغتيل فيها الرئيس الراحل «أنور السادات»، وكان علي، وأنا أعمل بالخارج يومها، أن أعود سريعا إلى الوطن في إجازة قصيرة لأناقش الرسالة، وأرجع إلى البلد الذي أعمل فيه.. لم أتمكن من دعوة المحبين، وفي مقدمتهم الدكتور البيومي، ولم يعرف الكثيرون بخبر المناقشة، ولدى عودتي كتبت إليه أخبره بما جرى، فكتب إلي رسالة رقيقة بليغة، تحمل من مشاعر الود والعتاب ما يجعلها قطعة من الأدب الرفيع الذي حفزني على الاحتفاظ بها، وجاء فيها:

«بعد التحية والإجلال

أما العتاب فبالأحبة أخلق.

لقد حضرت إلى القاهرة، وناقشت الرسالة، وذهبت دون أعلم، أفما تقتضي الأخوة أن تخبرني لأفرح بفرحك أم أنني لست في الحسبان إلى هذا الحد؟

مهما يكن لقد فرحت من وراء الأميال والكيلومترات، وأهنئك متأخرًا إذ تعذر أن أهنئك متقدما....»

إنها أخلاق رجل كبير مع شاب في مثل أبنائه، وهذا ليس غريبًا عليه، فالرجل في تواضعه الجم، وكرمه البالغ، يأبى إلا أن يعتب ويعبر عن مشاعره الحانية، وودّه الغامر.

ولعل هذا كان من وراء استمراره أو بقائه في إقليم الدقهلية بعيدًا عن أضواء القاهرة وصخبها، فالعاصمة تشد أصحاب المواهب والباحثين عن الشهرة، ولكن الرجل آثر أن يبقى بعيدًا عن الضجيج، ليفرغ لأدبيه وبحوثه حتى صار عميدًا لكلية اللغة العربية بالمنصورة، وهي من أولى الكليات الأزهرية التي أُسست خارج الجامعة الأم في القاهرة، ومن المنصورة –موطنه الإقليمي– عرفت كتاباته مذ كان طالبًا طريقها إلى أعرق المجلات الأدبية والثقافية في مصر والعواصم العربية.

يتميز الرجل بميزتين مهمتين للغاية، الأولى ذاكرته الدقيقة الواعية، والأخرى قدرته الأدبية على التدفق مثل نهر حين يكتب أو يحكي، ولقد رأيته يشير إلى قصائد وموضوعات في مجلدات «الرسالة» و «الثقافة» و «المنار» و«الفتح» وغيرها. فيذكر رقم الجزء أو العدد وتاريخه، بل يذكر رقم الصفحة أحيانًا، وقد أسعفتني ذاكرته –حفظها الله له– كثيرًا في جمع المادة عند إعدادي للدكتوراه. ولعل ذاكرته الواعية من وراء كشفه لسرقات أدبية، أو سبق أدباء في موضوعات بعينها، أو تجلية قضايا غائمة أو شائكة.

أما قدرته الأدبية على التدفق في الكتابة الأدبية، فحدث عنها ولا حرج، ويكفي أنه كان – ولعله ما زال – يكتب شهريًا مقالين معًا لمجلة «المنهل» التي تصدر في جدة، أحدهما باسمه الصريح، والآخر باسم «أبو حسام»، وهذا يضم شذرات أدبية وفكرية وثقافية مهمة يمتاح في كتابتها من ذاكرته القوية التي تسعفه فيما يطلبه، بالإضافة إلى مقالاته الأخرى الدائمة في مجلة الأزهر، ودوريات أخرى.

رجل في مثل مكانه الدكتور البيومي، كان يمكن أن تستهويه الأضواء والشهرة، ولكنه غنيّ عنهما، لسبب بسيط، وهو الامتلاء الروحي، الذي يجعل صاحبه في غنى عن البريق الزائف والوميض الخادع، يدل على ذلك حياته الهادئة البسيطة التي تعطى أكثر مما تأخذ، وتشمل بتعاطفها وحنوها جميع من حولها دون انتظار لجزاء أو شكر.

ولأنه يعرف عمق محبتي له ورغبتي في عدم إحراجه، فقد هنأته حين تولى رئاسة تحرير مجلة «الأزهر»، عبر صديق مشترك، وتمنيت له التوفيق في قيادتها، ورحت أنتظر مطلع كل شهر عربي، لأقرأ ما يبدعه يراعه من مواجهة مع واقع ثقافي فاسد، ساد فيه الغث والرديء، ولكنه بقلمه الواعي، يمضي ومعه كتيبة الإخلاص بتطهير هذا الواقع، وبث الثقافة الأصيلة.

لقد أصدر البيومي عشرات الدراسات الأدبية والإسلامية، بالإضافة إلى مجموعة من الروايات والقصص، إلى جانب مجموعة من الدواوين الشعرية، يحتاج تناولها إلى دراسات مستفيضة، ولا يتسع لها المجال هنا، ولكني أذكّر فقط بكتابه الموسوعة الضخم: «النهضة الإسلامية في سيرة أعلامها المعاصرين» ويقع في خمسة أجزاء كبيرة.

ثم إنه يتابع كتابة مقالاته الدورية في أكثر من مجلة داخل مصر وخارجها، مما يدل على متابعته للواقع الثقافي والاجتماعي فضلاً عن التاريخ والحضارة.

أطال الله عمره.